6

الجزء السادس

البيمبرنيل الأسود

-٤٠-

لم أرجع إلى منزلى عقب الحكم فقد كنت أعرف أن السلطات قد توجه ضربتها فى أية لحظة وأردت أن أرحل قبل أن يقع علىَّ الحظر أو يلقى القبض علىَّ.

وفى بورت إليزابيث التقيت عدداً من القيادات لنناقش الهياكل السرية للمنظمة والتقيت برئيسىْ تحرير مجلتين ليبراليتين لأناقش معهما القيام بحملة صحفية من أجل عقد مؤتمر قومى.

وفى اليوم التالى انضممت إلى اجتماع سرى فى دربان مع الأعضاء التنفيذيين لحركة الكونجرس لتقرير ما إذا كنا سننفذ الإضراب فى شكل احتجاج بالمنازل أو فى شكل تنظيم مرابطات أمام المؤسسات ومظاهرات. وكان هناك من يرى أننا فى حاجة إلى عمل أكثر نضالية خاصة وأنه بدأ فى اجتذاب الجماهير. وكان رأيى أن إضراب المنازل يسمح لنا بالإضرار بالعدو دون أن يضر هو بنا وكنت أقول ذلك وأنا أعلم أن الناس قد ضاقوا بالمقاومة السلمية. واتُّخذ القرار فى صالح

إضراب المنازل.

أن تعيش فى السر يتطلب نقلة نفسية. فعلى المرء أن يخطط لكل فعل مهما صغر. وأن يسائل فى كل شئ. ولا يستطيع المرء أن يكون نفسه فلابد وأن يتقمص الدور الذى يلعبه. ولا أظن أن هذا صعب للشخص الأسود فى جنوب إفريقيا. ففى ظل الأبارتايد عاش الأفارقة حياة ظلية ما بين القانونية والخروج عنها وما بين الظهور والاختباء. ولأن تكون أسود فى جنوب إفريقيا فإن ذلك كان يعنى ألا تثق فى أى شئ وهذا لا يختلف كثيرا عن الحياة مختبئا.

أصبحت مخلوقا ليليا فكنت لا أخرج لعملى إلا فى الظلام. وفى الأساس كنت أعمل فى جوهانسبرج ولكننى كنت أسافر إذا استدعى الأمر. كنت أقيم فى شقق خالية وفى منازل الآخرين وفى أى مكان يمكن أن أكون فيه وحيدا وغير مرئى. وعندما كنت أعيش مختبئا كنت لا أسير طويلا معتدل القامة وكنت أتكلم بصوت خفيض بدون وضوح أو تميز وكنت لا أسأل عن أى شئ بل كنت أترك الآخرين يخبروننى عما أعمل. تركت شعرى وذقنى ينموان وكنت غالبا ما أتخفى كسائق أو طباخ أو بستانى وكنت أرتدى الزى الأزرق أو زى عمال الزراعة.

كانت لدىَّ سيارة وكنت أرتدى قبعة السائق مع الزى الأزرق وكان ذلك التخفى يناسبنى لأننى كنت أستطيع التنقل متظاهرا بأننى أقود سيارة سيدى.

وفى الأشهر الأولى وحينما كان يصدر أمر بالقبض علىَّ وتتبع آثارى الشرطة فقد كان وجودى كخارج على القانون يروق لأخيلة الصحفيين. فتظهر مقالات تدعى أننى أتواجد بأماكن معينة وتضع الشرطة المتاريس على طول الطرق لكى يعودوا خاوين الوفاض. وأطلق علىَّ حينئذ لقب «البيمبرنيل الأسود» إشارة إلى شخصية روائية تدعى البيمبرنيل الأحمر نجحت فى أن تتحاشى الإمساك بها إبان الثورة الفرنسية.

وكنت أسافر سرا فى أنحاء البلاد. كنت مع المسلمين فى الكيب وعمال السكر فى ناتال وعمال المصانع فى بورت إليزابث وكنت أحضر الاجتماعات السرية فى المناطق المختلفة من البلاد فى المساء. وكنت أحيانا أغذى أسطورة البيمبرنيل بأن أحادث الصحفيين من تليفونات عامة وأخبرهم عما كنا ننوى فعله وعن عجز الشرطة. وكنت أظهر فجأة فى مكان أو آخر مما يضايق الشرطة ويبهج الناس.

هناك قصص غير دقيقة عن تجاربى وأنا مختف، لأن الناس يحبون تزيين قصص التحدى. لكننى أيضا كنت أجد نفسى فى مواقف كنت أهرب منها بصعوبة. فحدث أن كنت مسافرا بسيارتى فى المدينة ووقفت فى إشارة مرور ثم نظرت إلى اليسار لأجد الكولونيل سبنجلر

رئيس أمن وستووتزراند. وكان الإمساك بالبيمبرنيل الأسود سيعتبر إنجازا له. كنت أرتدى قبعة العمال والزى الأزرق والنظارة، ولكنه لم ينظر ناحيتى ومرت الثوانى كالساعات.

وفى عصر يوم وبينما كنت متخفيا فى زى سائق وأنتظر على ناصية ليصطحبنى أحدهم رأيت رجل شرطة إفريقياً يخطو بعزم تجاهى. ونظرت حولى لأرى ما إذا كان هناك طريق للهرب وقبل أن أفعل نظر إلىّ وابتسم ورفع إبهاميه بإشارة المؤتمر واختفى. وكانت تلك المواقف تحدث كثيرا مما كان يمنحنى الثقة فى ولاء كثير من رجال الشرطة الأفارقة الذين لعب الكثير منهم أدوارا حقيقية وكانوا ذوى فائدة عظمى لنا.

-٤١-

واستغرق الإعداد لإضراب ٢٩ مايو وقتى وأنا مختف. فقد كانت الأمور تسير باتجاه حرب فعلية بين الدولة والحركة الليبرالية. ففى آخر مايو نظمت الدولة غارات على قيادة المعارضة ومنعت الاجتماعات وصودرت المطابع وصدر تشريع يسمح للشرطة بأن تحتجز المقبوض عليهم اثنى عشر يوما مع عدم السماح بالكفالة.

وأعلن ڤيرويرد أن هؤلاء الذين يؤيدون الإضراب، إنما يلعبون بالنار. وحثت الحكومة المصانع أن تمد العمال بأماكن للنوم. وقبل الإضراب بيومين قامت الدولة بأكبر استعراض عسكرى لقواتها فى زمن السلم وألغيت عطلات الشرطة ورابطت قوات الجيش فى مداخل ومخارج

المناطق المدنية وسارت الدبابات فى الشوارع غير المرصوفة فى المناطق الإفريقية بينما كانت تحلق الطائرات العمودية ثم تنقض لتفريق أى تجمع وكانت تُسلّط بالليل الأضواء الكشافة على المنازل.

وفى الليلة السابقة للإضراب كان مقررا لى أن ألتقى بعدد من قيادات المؤتمر فى منزل آمن بسويتو. ولكى أتحاشى متاريس الشرطة دخلت سويتو عن طريق لا يوجد به عادة دوريات ولكننى قابلت كمينا وأشار لى الشرطى الأبيض أن أقف وكنت أرتدى زى السائق وبعد أن نظر لى عن قرب أخذ يفتش السيارة ولما لم يجد شيئا سألنى عن تصريح المرور فأخبرته بأننى قد نسيته خطأ وذكرت له رقما وهميا فأشار لى بالذهاب.

وفى أول أيام الإضراب غامر مئات الآلاف من الناس بوظائفهم ولم يذهبوا إلى العمل، ففى دربان غادر العمال الهنود المصانع بينما لم يغادر آلاف العمال الملونين منازلهم فى الكيب. أما فى جوهانسبرج فقد لزم نصف العاملين منازلهم وكانت النسبة أعلى فى بورت إليزابث. وقد غطت حملتنا تماما على احتفالات البيض بيوم الجمهورية.

أما على مستوى بقية البلاد فكانت الاستجابة أقل مما توقعنا وذلك لصعوبة الاتصالات. وفى ذلك المساء صرحت لأحد الصحفيين قائلا إن أيام عدم العنف قد انتهت.

وبعد التشاور مع زملائى قررنا أن ننهى الإضراب فى يومه الثانى. والتقيت فى منزل آمن فى ضاحية بيضاء مع صحفيين محليين

وأجانب ووصفت الإضراب بأنه نجاح باهر كما ذكرت أنه طالما أن الحكومة تلجأ إلى العنف لقمع نضالنا السلمى فعلينا أن نستعمل طرقا أخرى.

وكان الحوار بشأن استعمال العنف قد بدأ عام ١٩٦٠ وتشاورت مع وولتر واتفقنا على أن المنظمة يجب أن تبدأ نهجا جديدا. وكان الحزب الشيوعى قد أعاد ترتيب صفوفه فى السر وكون جناحا عسكريا. وقررنا مناقشة موضوع المقاومة المسلحة مع لجنة العمل فى اجتماعها فى يونيو عام ١٩٦١. وهناك عارضنى موسيس كوتانى عضو الحزب الشيوعى وقوبل اقتراحى بالرفض. وقابلت موسيس فى الخفاء وشرحت له الأسباب التى دعتنى إلى الاعتقاد بأنه لا طريق لنا إلا العنف وضربت له مثالا باتيستا الذى استمر فى ممارساته السلمية غير المجدية إلى أن قلب كاسترو الموازين وقلت له إن الناس قد بدأوا فى تكوين وحداتهم العسكرية المستقلة وعلى المؤتمر أن يقودهم. وفى النهاية أخبرنى موسيس بأنه لا يستطيع أن يعد بشئ وأن علىَّ أن أعرض الموضوع للمناقشة مرة أخرى على اللجنة المركزية فى دربان. وكنت متخوفا من معارضة الرئيس لوثولى الذى يعتنق عدم العنف كمبدأ وقلت فى الاجتماع إن العنف هو خيارنا الوحيد إذ إنه خطأ أخلاقى أن نعرض الناس لهجمات مسلحة من الدولة دون أن نقدم لهم البديل وأنه من الأفضل أن نقود نحن أعمال العنف من منطلق مبادئنا حيث ننقذ حياة الأفراد بالهجوم على رموز القمع وليس على الناس.

وفى البدء عارض الرئيس مناقشاتى وجادلناه طوال الليل وأخيرا وافق على أنه لا مفر من الحملة العسكرية وأقرت ذلك اللجنة.

وكانت فكرة الرئيس أن يكون للحركة العسكرية استقلالها الذاتى وفى نفس الوقت تكون متصلة بالمؤتمر وعلى هذا تكون هناك قناتان منفصلتان للمعركة.

وفى اجتماع اللجنة المركزية للحركات التحررية كانت المناقشة ساخنة وعارض بعض المشتركين وخاصة أعضاء المجلس الهندى اللجوء إلى العنف وحاولوا إثناءنا واستمرت المناقشات طوال الليل ووصلنا فى الصباح إلى قرار وفوضنى المجتمعون فى تكوين منظمة جديدة عسكرية منفصلة عن المؤتمر لأن سياسة المؤتمر يجب أن تظل سلمية.

وكانت تلك خطوة مصيرية. فعلى مدى خمسين عاما عالج المؤتمر عدم استعمال العنف كمبدأ لا يحاد عنه. ولكن فى تلك اللحظة أصبح المؤتمر منظمة مختلفة وأصبحنا على وشك الولوج فى طريق صعب، طريق العنف المنظم الذى لم يكن باستطاعتنا أن نعلم نتائجه.

-٤٢-

وأوكل إلىَّ أنا الذى لم أكن أبدا جنديا ولم أطلق مسدسا مهمة تشكيل جيش. وكان اسم المنظمة رمح الأمة ويرمز إليها بـ MK ورغم أنه لم يكن يسمح بعضوية البيض للجنة المركزية للمؤتمر فلم تكن هناك قيود على MK. وعلى الفور جندت چوسلوڤو الذى شكلت أنا وهو و وولتر سيسولو القيادة العليا برئاسته واستعنا بجهود أعضاء الحزب

الشيوعى عن طريق چو الذين كانوا قد بدأوا حملة عنف تشمل قطع أسلاك تليفونات المصالح الحكومية وخطوط الاتصالات. وتم تجنيد جاك هودجسون الذى كان قد اشترك فى الحرب العالمية الثانية ورستى بيرنشتاين وكلاهما من الحزب. وأصبح جاك أول خبير لنا فى التدمير وكان تكليفنا هو توجيه ضربات عنيفة ضد الدولة بينما نتحاشى الإضرار بالأفراد.

وبدأت بالقراءة والتحدث إلى المختصين. واكتشفت أن هناك كتبا عديدة فى هذا الموضوع وبدأت أقرأ أدبيات الحرب المسلحة وخاصة حرب العصابات. كنت أود أن أعرف الظروف الملائمة لمثل تلك الحرب وكيف يُشكَّل الفرد ويُدرب وكيفية تكوين قوة فدائية وتسليحها وأين تجد إمداداتها إلى آخر المشاكل الأساسية. فقرأت تقرير بلاروكا سكرتير عام الحزب الشيوعى فى كوبا عن سنواتهم كمنظمة غير قانونية فى كوبا وقرأت عن چيفارا وماوتسى تونج وفيدل كاسترو. وفى «الفدائى» بقلم وليز ريتز قرأت عن تكتيكاتهم أثناء حرب البوير وقرأت كتاب إدجار سنو الرائع «النجم الأحمر» ورأيت كيف أن تصميم ماو وفكره غير التقليدى هما اللذان قاداه إلى النصر. كما قرأت كتاب «الثورة» لمناحم بيجن وشجعتنى حقيقة أن القائد الإسرائيلى كان قد قاد حرب عصابات فى بلد لا توجد به جبال أو غابات، وكان هذا يماثل وضعنا وكنت متشوقا أن أعرف المزيد عن المقاومة المسلحة لشعب أثيوبيا ضد موسولينى وعن جيوش الفدائيين فى كينيا والجزائر والكاميرون. كما رجعت إلى تاريخنا ودرست ماضينا قبل وبعد الرجل

الأبيض وحروب الأفارقة ضد الأفارقة وضد البيض وحروب البيض ضد البيض. ثم قمت بمسح المناطق الصناعية فى البلاد ونظام المواصلات وشبكة الاتصالات وجمعت خرائط مفصلة وحللت بطريقة نظامية تضاريس كل منطقة فى البلاد.

وفى ٢٦ يونيو وُجهت خطابات من مخبئى إلى صحف جنوب إفريقيا أثنيت فيها على الشعب لشجاعته أثناء إضراب المنازل ودعوت إلى مؤتمر وطنى دستورى وأعلنت أن حملة عدم تعاون ستبدأ فى شتى أرجاء البلاد إذا لم تعقد الدولة ذلك المؤتمر واختتمت خطابى بأننى لن أترك جنوب إفريقيا ولن أستسلم.

-٤٣-

وخلال الأشهر الأولى من العمل السرى تقاسمت شقة مكونة من غرفة واحدة فى دور أرضى مع وولفى كوديش فى ضاحية بيضاء هادئة إلى الشمال من وسط المدينة. وكان وولفى عضوا فى مجلس الديمقراطيين ومراسل صحيفة العهد الجديد وكان قد حارب فى شمال إفريقيا وإيطاليا إبان الحرب العالمية الثانية وكانت معلوماته وخبرته مفيدة لى. وبناء على اقتراحاته قرأت بعض الكتب القيمة ومنها كتاب الجنرال البروسى كارل فون كلوزويتز «عن الحرب» الذى كانت فكرته الأساسية هى أن الحرب استمرار للدبلوماسية. وكنت أقضى النهار داخل الشقة مُسدلا الستائر وأترك المنزل للاجتماعات وجلسات التنظيم ليلا.

وكانت MK فى ذلك الوقت تتدرب على التفجيرات. وفى إحدى الأمسيات ذهبت بصحبة وولفى لحضور تجربة فى مصانع الطوب على أطراف المدينة. وبدأ جاك هودجسون التجربة ونجحت وعدنا إلى سياراتنا وذهب كل فى اتجاه.

كنت أشعر بالأمان فى تلك الضاحية لكونها منطقة بيضاء ومن غير المحتمل أن تبحث عنى الشرطة هناك. وكنت وأنا أقرأ أثناء النهار أضع لترا من الحليب على حافة النافذة ليخمر فقد كنت مولعا كبقية شعب الإكسهوسا بالحليب الرائب. وذات مساء وبينما كنت أتحدث مع وولفى سمعت حديثا يدور بين رجلين أسودين من الزولو خارج النافذة وكانت الستائر مسدلة فأشرت إلى وولفى أن يصمت. وسأل أحدهما عما يفعله «حليبناء على حافة النافذة وحينما استفهم الآخر عن مقصده رد الشخص الآخر قائلا «الحليب الرائب على حافة النافذة» وأراد ذلك الشخص الثاقب البصر أن يوحى بأنه لا يضع الحليب على حافة النافذة سوى شخص أسود وبالتالى فماذا يفعل شخص أسود فى منطقة بيضاء. وحين ذلك قررت أن أرحل. ورحلت إلى مخبأ آخر الليلة التالية.

وتنقلت بين منزل طبيب فى جوهانسبرج ومُزارع قصب سكر فى ناتال حيث سكنت فى بيت للشباب متخفيا كمندوب لوزارة الزراعة لتقييم التربة. وكانت المنظمة قد أمدتنى بآلات التقييم وكنت أقضى جانبا من اليوم أفحص التربة وأجرى التجارب. ورغم ثقتى من أن المزارعين لم ينخدعوا لكنهم لم يوجهوا إلىَّ أية أسئلة حتى بعد أن رأوا أناسا

يصلون بسياراتهم فى الليل وكان بعض منهم سياسيين معروفين فى المنطقة. وحينما كنت أخطط للرحيل من المنطقة شكرت أحد الأشخاص من كبار السن لرعايته إياى فرد قائلا «أهلا بك، لكن من فضلك أخبرنا ماذا يريد الرئيس لوثولى؟». فأخبرته أنى لا أدرى ولكنى أعلم فقط أنه يريد عودة أراضينا إلينا وملوكنا إلى قوتهم كما يريد لنا أن نتحكم فى حياتنا. فرد قائلا «وكيف سيفعل ذلك وهو لا يملك جيشا»؟ وبينما تشجعت لما قاله الرجل عرفت أنه لابد وأن آخرين قد اكتشفوا مهمتى فرحلت الليلة التالية.

-٤٤-

كان مكانى التالى منتجعا أكثر منه مخبأ فقد انتقلت إلى ضيعة فى ريفونيا وهى ضاحية رعوية فى شمال جوهانسبرج وكانت المنظمة قد ابتاعت ضيعة هناك لتكون ملجأ آمنا لمن يعملون فى السر. وكان البيت عتيقا غير مسكون.

وانتقلت هناك متخفيا كخادم يرعى البيت حتى يسكنه سيده. وكنت قد سميت نفسى دافيد موتسمايى وهو اسم أحد عملائى السابقين. وأثناء النهار كان المنزل يزدحم بالعمال والبناءين والمبيضين الذين كانوا يصلحون المبنى الرئيسى والمبانى الملحقة وكانت الخطة أن نعد غرفا إضافية ملحقة بالمنزل لمزيد من الأفراد وكان كل العمال أفارقة وكانوا ينادوننى بالنادل أو الصبى وكنت أقوم بإعداد الإفطار لهم والشاى فى الصباح وبعد الظهيرة وكانوا يرسلوننى فى مهمات بالمزرعة أو

يأمروننى بمسح الأرضية أو حمل القمامة. وكانت تحدث مواقف ينهرنى فيها العمال بصفتى أقل منهم منزلة.

إن الكثيرين قد رسموا صورة مثالية لطبيعة المجتمع الإفريقى التى تساوى بين البشر. وبينما أشاركهم الرأى إلى حد كبير فإنى أجد أن الأفارقة لا يعاملون بعضهم البعض دائما معاملة الأنداد فلقد لعب التصنيع دوره فى إدخال فكرة الإحساس بمنزلة الفرد التى تعم مجتمع البيض. وبالنسبة لهؤلاء الرجال فقد كنت أقل منهم مرتبة، مجرد خادم أعامل باحتقار وقد أتقنت الدور بحيث لم يشك أحد فى أننى غير ذلك.

وواصلت حياتى على النمط السابق فكنت أخرج للاجتماعات ليلا فقط، وبعد أسابيع لحق بى ريموند مهلابا الذى حضر من بورت إليزابث وكان عضو اتحاد نقابى قويا وعضوا فى اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى فى الكيب وكان من ضمن أوائل قادة المؤتمر الذين ألقى القبض عليهم فى حملة التحدى وكان قد تم اختياره للعمل فى MK. وحضر إلى المزرعة ليستعد للرحيل لجمهورية الصين مع ثلاثة آخرين للتدريب العسكرى وقد ساعدنى فى كتابة دستور الـ MK وبعد ذلك لحق بنا چو سولڤو وراستى برنشتامين. وبعد رحيل ريموند أتى مايكل هارمل أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى السرى وأحد مؤسسى مجلس الديمقراطيين ورئيس تحرير مجلة ليبراشن.

وبعد ذلك انتقل أرثر جولدريتش وعائلته إلى البيت الرئيسى بالمزرعة كسكان وانتقلت أنا إلى منازل العمال والخدم الملحقة التى كان قد تم بناؤها. وأمدنا وجود أرثر بغطاء لنشاطاتنا وكان أرثر فنانا ورساما وكان عضوا فى مجلس الديمقراطيين وأحد أعضاء الـ MK وكانت حياته السياسية غير معروفة للشرطة كما كانت له خبرة فى حرب العصابات إذ إنه قد حارب مع البالماخ وهو الجناح العسكرى للحركة اليهودية القومية فى فلسطين وكان على علم بحرب العصابات مما أفادنى. وبعد ذلك لحق بنا جيلمان وهو صديق قديم للحركة وأصبح رئيس عمال فى المزرعة وأحضر معه عددا من العمال فبدأ المكان كأى منزل آخر فى المنطقة. وكانت أسعد أوقاتى فى المزرعة تلك التى تزورنى فيها زوجتى وكانت تأتى فى عطلات نهاية الأسبوع وكنا نعمل جاهدين على تضليل الشرطة عن تتبع خط سيرها.

-٤٥-

كُنّا ونحن نخطط لاتجـــاه وشكل أنشطة MK قـــد درسنا أربع اختيارات: التخريب، حرب العصابات، الإرهاب، والثورة المعلنة. وكانت الثورة المعلنة مستحيلة على جيش لم يقو عوده أما الإرهاب فكانت له آثاره السلبية على من يقومون به لأنه يفقدهم أى تأييد جماهيرى. وكانت حرب العصابات إمكانية ولكن ولأن المؤتمر كان مترددا فى تبنى العنف فقد كان من الصواب أن نتبع الوسيلة التى تسبب أقل الأخطار للأفراد ألا وهى أعمال التخريب ولأن أعمال التخريب لا تتسبب فى إهدار حياة الأفراد فإنها كانت تحمل إمكانية المصالحة بين جميع

الأعراق فيما بعد.

وكانت استراتيجيتنا تتلخص فى القيام بمناوشات منتقاة ضد المنشآت العسكرية ومحطات توليد القوى وخطوط الهاتف وشبكات المواصلات وغيرها من الأهداف التى تعوق فاعلية الدولة العسكرية وتخيف مؤيدى الحزب القومى وتُفزع رأس المال الأجنبى وتضعف الاقتصاد لكى نجر الحكومة إلى المساومة. وقررنا أنه إذا لم تؤد أعمال التدمير نتائجها ننتقل إلى حرب العصابات.

وذات يوم سمعت عبر المذياع أن الرئيس لوثولى قد نال جائزة نوبل للسلام وغمرنى كما غمر غيرى الفرح فقد كان ذلك اعترافا بكفاحنا وبمنجزات الرئيس كقائد وشخص. كما أن هذا كان ذلك يمثل اعترافا من الغرب بأن معركتنا معركة أخلاقية كما أنه كان تحديا مهينا للقوميين الذين صوروا لوثولى على أنه ثورى خطير وقائد مؤامرة شيوعية.

وكان توقيت هذا التشريف حرجا بطريقة أثارت التساؤلات حول الجائزة. ففى اليوم التالى لعودة لوثولى من أوسلو أعلنت MK عن وجودها بطريقة درامية فى الساعات الأولى من صباح ١٦ ديسمبر إذ انفجرت قنابل يدوية فى محطات توليد الكهرباء ومكاتب حكومية فى بورت إليزابث وجوهانسبرج ودربان. وفى وقت الانفجار وزعت آلاف المنشورات نص فيها على مانيفستو الـMK فى أنحاء البلاد وحملنا فيها القوميين مسئولية الموقف.

وكنا قد اخترنا ذلك اليوم لأنه اليوم الذى يحتفل فيه البيض بهزيمة دينجانى قائد الزولو العظيم فى معركة نهر الدم سنة ١٨٣٨ على يد البيض.

وصدمت التفجيرات البيض وجعلتهم يتحققون من أنهم جالسون على فوهة بركان أما السود فبدأوا يدركون أن المؤتمر قد خرج عن كونه منظمة للمقاومة السلبية.

وقد أثار إعلان MK حفيظة الحكومة ودفعها إلى شن هجمات مضادة شريرة وقاسية على مدى لم يسبق له مثيل وأصبحت مهمة البوليس السرى الرئيسية القبض على أعضاء MK مظهرين عزمهم على اقتلاع ما كانوا ينظرون إليه على أنه أخطر تهديد لوجودهم.

-٤٦-

عندما كانت تزورنى وينى كنت أشعر بوهم مؤقت أن الأسرة مازالت متماسكة. وكانت ابنتاى مازالتا صغيرتين أما ابنى ماكجاثو فقد كان فى الحادية عشرة ولذا أخبرناه بألا يذكر اسمى الحقيقى أمام أحد. وذات يوم وبينما كان يلعب مع ابن أرثر وجدا نسخة من مجلة كانت وينى قد أحضرتها معها وأخذا يقلبان الصفحات وفجأة رأى ماكجاثو صورتى قبل أن أتخفى فصاح «هذا والدى» ولما لم يصدقه الآخر أخبره أن اسمى هو نيلسون مانديلا فرد عليه أن الاسم هو داڤيد ثم جرى إلى والدته لتؤكد ما يقوله. عند ذلك انزعجت وأخبرتنى وهنا تحققت من أنه يجب علىَّ أن أغادر المكان ولكننى لم أفعل لأنه كان

مقررا أن أسافر خارج البلاد بعد حوالى أسبوع.

وكان المؤتمر قد تلقى دعوة من حركة «الحرية لكل إفريقيا» لحضور مؤتمرها فى أديس أبابا. وكانت مهمتى فى إفريقيا أوسع من مجرد حضور المؤتمر، فقد كان علىَّ أن أرتب مساندة مالية لحركتنا العسكرية وتدريبا لرجالنا إن أمكن داخل القارة خاصة وأن PAC كانت قد قامت بحملتها للإعلان عن نفسها.

وقبل مغادرتى ذهبت للقاء الرئيس لوثولى فى مكان آمن. ولم يكن الرئيس فى حالة صحية جيدة وكانت ذاكرته قد بدأت تضعف فأخذ يؤنبنى على تكوين MK دون استشارته رغم أننى حاولت تذكيره بمناقشاتنا.

وكان على المؤتمر ترتيب أمر سفرى إلى دار السلام حيث كنت سأستقل الطائرة من هناك إلى أديس أبابا. وكنت سألتقى بوولتر وكاثرادا ونكويى الذين كانوا سيُحضرون الأوراق المطلوبة للسفر. ووصل كاثرادا ولكن تأخر وولتر ونكويى أكثر من اللازم وعلى ذلك اضطررت للسفر بالسيارة إلى بيتشوالاند حيث استأجرت طائرة من هناك. وبعد ذلك علمت أنه كان قد تم القبض على وولتر ونكويى فى ذلك اليوم.

وبعد عبورى حدود جنوب إفريقيا ووصولى إلى مدينة لوباتش وجدت بانتظارى برقية من دار السلام بتأجيل رحلتى أسبوعين. وهناك لحق بى چو ماثيوس ولكننى قررت أن علينا أن نسرع إلى دار السلام لأن

أحد أعضاء المؤتمر كان قد اختطف مؤخرا من لوياتش بواسطة شرطة جنوب إفريقيا. وبعد مصاعب جمة وصلنا إلى تانجانيقا ونزلنا فى فندق محلى ووجدنا جمعا من البيض والسود يجالسون بعضهم بعضا ويتحادثون فى شرفة الفندق ولم يكن قد حدث أن تواجدت فى مكان عام ليس فيه تمييز عنصرى. وكنا هناك فى انتظار السيد مواكا نجالى من الاتحاد القومى الإفريقى التانجانيقى وعضو البرلمان. ومن حديثه مع موظفة الاستقبال البيضاء وتوصيته إياها بشأننا أحسست أننا فى بلد يحكمه الأفارقة. وفى كل مكان ذهبت إليه فى تنجانيقا كان لون بشرتى يلقى قبولا ولأول مرة كنت أقيم على أساس عقلى وشخصيتى وليس على أساس لون جلدى.

ووصلنا إلى دار السلام فى اليوم التالى وقابلت جولويس نيريرى أول رئيس جمهورية للبلد المستقل وتحادثنا فى منزله وأتذكر أنه كان يقود بنفسه سيارة بسيطة ماركة أوستن وقد ترك ذلك أثرا فى نفسى إذ أدركت أنه رجل من الشعب وكان هو يؤكد أن الطبقية غريبة عن إفريقيا وأن الاشتراكية طبيعية.

ولخصت له موقفنا واختتمت بطلب المساعدة وكان سياسيا ماهرا ذا صوت منخفض. ولاقت مهمتنا منه قبولا ولكن سرعان ما ساءنى نوع فهمه للموقف فقد اقترح أن نؤجل المعركة المسلحة إلى أن يفرج عن سوبوكوى وكانت تلك أول مرة أعلم فيها بشعبية PAC فى بقية إفريقيا. وقمت بوصف نقاط ضعف الـ PAC وقلت له إن التأجيل سيكون نكسة للنضال ككل فاقترح أن أحاول كسب الإمبراطور

هيلاسى لاسى ووعدنى بتقديمى له.

وكان مقررا أن ألتقى بأوليفر فى دار السلام ولكن بسبب تأخيرى لم يستطع الانتظار وترك لى رسالة أن أتبعه إلى لاجوس حيث ذهب لحضور مؤتمر للدول المستقلة.

وتوقفت الطائرة فى الخرطوم واصطففنا للمرور من الجمرك. وكان چو ماثيوس يتقدمنى وباسنر وزوجته من ورائى. وكان باسنر هو المحامى الذى كنت معه وكان قد طلب اللجوء السياسى إلى غانا بسبب اتجاهاته السياسية الراديكالية ونشاطاته اليسارية فى جنوب إفريقيا. وبما أننى لم أكن أحمل جواز سفر فقد كانت معى وثيقة صادرة من تانجانيقا تقول «إن هذا هو نيلسون مانديللا من مواطنى جنوب إفريقيا وهذا تصريح له بالسفر من تانجانيقا والعودة إليها» قدمت الورقة إلى الموظف السودانى المسن فنظر وهو يبتسم وقال «أهلا بك فى السودان يا ولدى» وصافحنى ثم ختم الوثيقة. وحينما قدم له باسنر نفس الوثيقة صاح قائلا «إنها غير رسمية وشرح له باسنر أنه مضطهد فى جنوب إفريقيا لأنه يقاتل من أجل حقوق الرجل الأسود». فنظر السودانى إليه قائلا «إنه رجل أبيض فوقفت إلى جانب باسنر وأومأت برأسى مؤمّنا على كلامه وهنا ختم الرجل الوثيقة قائلا «مرحبا بك فى السودان».

وكنت لم أر أوليفر منذ عامين وحينما التقيت به فى مطار أكرا تعرفت عليه بصعوبة فقد كان قد أطلق لحيته وشعره وكان يرتدى الزى

العسكرى الذى كان يميز المقاتلين فى جميع أنحاء إفريقيا. وامتدحته للإنجازات الهائلة التى أداها فى الخارج فقد قام بإنشاء مكاتب للمؤتمر فى غانا وإنجلترا ومصر وتانجانيقا وأقام صلات قيمة فى بلاد عديدة وكان بذلك أفضل سفير للمنظمة.

وعلى متن الطائرة من أكرا إلى أديس أبابا وجدنا جور راديبى وبيتر مولوتس وأعضاء آخرين من PAC الذين كانوا فى طريقهم إلى المؤتمر وأبدوا دهشتهم لرؤيتى وأخذنا فى مناقشة أمور تتعلق بجنوب إفريقيا ووجدت أننا ونحن خارج بلدنا كان هناك ما يجمعنا أكثر مما يفرقنا.

وتوقفنا قليلا فى الخرطوم ثم ركبنا طائرة أثيوبية إلى أديس أبابا وهنا انتابتنى مشاعر غريبة فقد كان قائد الطائرة أسود ولم أكن قد رأيت من قبل قائد طائرة أسود وفى تلك اللحظة وجدت أن علىَّ أن أتغلب على الخوف الذى تملكنى وواجهت نفسى ووجدت أن تفكيرى قد تأثر بالأبارتايد فاعتقدت أن الأفارقة أدنى مستوى وأن قيادة الطائرة هى وظيفة رجل أبيض ووبخت نفسى لتلك الأفكار.

-٤٧-

وكان أول توقف فى أديس أبابا التى وجدتها مختلفة عما عُرِف عنها حيث لم يكن هناك سوى شوارع قليلة مرصوفة وكانت هناك أغنام وماعز فى الشوارع أكثر من السيارات وبخلاف القصر الإمبراطورى والجامعة وفندق الرأس حيث كنا نقيم فلم تكن هناك مبان ذات قيمة.

ولم تكن أيضا أثيوبيا الحديثة مثلا للديمقراطية فلم يكن هناك أحزاب سياسية أو مؤسسات شعبية فى الحكومة. فلا فصل للسلطات فقط كان الإمبراطور هو الشخص الأسمى.

وقبيل انعقاد المؤتمر اجتمع المندوبون فى مدينة صغيرة اسمها ديرازيد وأقيم نصب عظيم فى منتصف الميدان وجلست أنا وأوليفر فى جانب بعيد عن المنصة. وفجأة سمعنا موسيقى عن بعد تنطلق من بوق ثم أنغام آلات نحاسية تصاحبها دقات طبول إفريقية وحينما اقتربت الموسيقى كان باستطاعتى سماع مئات من الأقدام وهى تسير ومن خلف مبنى على حافة الميدان وظهر ضابط يلوح بسيف يبرق وفى أعقابه كان يسير خمسمائة من الجنود الأفارقة فى صفوف عرضية مكونة من أربعة وكل منهم يحمل بندقية لامعة على كتفه وحينما وصلت القوات إلى المنصة الرئيسية سمعت صوتا آخر ينطلق بالأمهارية وتوقف الجنود فجأة وحيوا رجلا يلبس زيا مبهرا وكان ذلك الرجل هو إمبراطور أثيوبيا هيلاسى لاسى أسد يهونا.

وفى الصباح حضرت وأوليفر اجتماعا تقدمت فيه كل منظمة بطلب اعتماد ولدهشتنا علمنا أن أوغندا قد أوقفت سير طلبنا على أساس أن منظمتنا قبلية ولما شرحنا لهم الأمر ووضحنا أن رئيسنا هو لوثولى وهو من الزولو قبل الطلب.

وافتتح الإمبراطور المؤتمر رسميا وكان مقررا أن أتكلم عقب الإمبراطور وبعد أن استعرضت تاريخ نضالنا واضطهادنا شكرت

الدول المجتمعة لضغطها على جنوب إفريقيا وخصصت بالذكر الدول التى قادت الحملة والتى نجحت فى طرد جنوب إفريقيا من الكومنولث وانتقلت إلى تكوين MK ولما أعلنت أننى سأعود إلى جنوب إفريقيا لمواصلة الكفاح قوبل ذلك بالهتاف. وتناقشت وأوليفر مع كينيث كاوندا الذى أصبح رئيس زامبيا ورئيس حزب الاستقلال فى شمال روديسيا وأبدى قلقه لعدم اتحاد فصائل المقاومة فى جنوب إفريقيا وكان يقصد PAC التى لفتت أحداث شاربفيل إليها الأنظار فى إفريقيا.

وكانت مصر قد تملكت مخيلتى وأنا طالب كمهد للحضارة الإفريقية وكنز لجمال الفن والتصميم وكنت دائما أرغب فى زيارة الأهرام وأبو الهول وعبور نهر النيل أعظم أنهار إفريقيا. ومن أديس أبابا ذهبت وأوليفر وروبرت ريشا إلى القاهرة وقضيت يومى الأول فى المتحف أفحص القطع الفنية وأدون الملاحظات وأجمع المعلومات عن نمط الرجال الذين أسسوا حضارة وادى النيل القديمة ولم يكن اهتمامى اهتمام هاو للآثار فإنه لمن المهم للأفارقة القوميين أن يتسلحوا بالبرهان الذى يدحضون به ادعاءات البيض بأن الأفارقة لم تكن لهم فى الماضى حضارة تضارع مدنية الغرب. واكتشفت فى صباح واحد أن المصريين كانوا يبدعون أعمالا فنية ومعمارية عظيمة بينما كان الغربيون فى الكهوف.

وكانت مصر نموذجا هاما لنا فقد كان أمامنا على الطبيعة برنامج الإصلاح الاقتصادى الذى أطلقه جمال عبدالناصر. فقد حدد الملكية الخاصة للأراضى الزراعية وأمم بعض قطاعات الاقتصاد وكانت له

الريادة فى بدء برنامج سريع للتصنيع وجعل التعليم ديمقراطيا وبنى جيشا حديثا. وكانت كثير من تلك الإصلاحات هى بالتحديد ما يطمح المؤتمر إلى أن يحققه وكان الأهم بالنسبة لنا فى ذلك الوقت أن مصر كانت الدولة الإفريقية الوحيدة التى تمتلك جيشا وأسطولا بحريا وجويا يمكن أن يقارن بذلك الذى تمتلكه جنوب إفريقيا.

وبعد يوم رحل أوليفر إلى لندن على أن نلتقى فى غانا.

وفى تونس فى اليوم التالى التقينا بالحبيب بورقيبه وكان رد فعله إيجابيا وفوريا وعرض أن يقدم التدريب العسكرى ومنحنا خمسة آلاف جنيه للأسلحة.

وكانت المغرب ملتقى المناضلين من أنحاء إفريقيا فهناك وجدنا أناسا من موريتانيا وأنجولا والجزائر وكانت أيضا معقل جيش الجزائر الثورى وقضينا أياما مع رئيس البعثة الجزائرية فى المغرب. وكان الموقف فى الجزائر هو النموذج الأقرب لنموذجنا حيث كان الثوار يواجهون مجتمعا كبيرا من المستوطنين البيض الذين يحكمون الغالبية وهم السكان الأصليون. وشرح لنا د.مصطفى حرب العصابات فى الجزائر والهدف من حرب العصابات الذى هو ليس الكسب العسكرى لكن إطلاق العنان للقوى السياسية والاقتصادية التى ستهزم العدو ونصحنا بعدم إهمال الجانب السياسى لأهمية الرأى العام العالمى. ثم أرسلنا إلى المقر الرئيسى للجيش الجزائرى فى مدينة حدودية صغيرة حيث قمنا بزيارة وحدة

جيش على الجبهة وبعد يومين كنت ضيفا فى استعراض عسكرى على شرف أحمد بن بيللا الذى أصبح فيما بعد رئيس وزراء الجزائر والذى كان قد خرج لتوه من المعتقل.

وكانت محطتى التالية هى سيراليون. وعندما وصلت اكتشفت أن هناك اجتماعا للبرلمان قررت أن أحضره وبينما أنا جالس فى مقعد قرب رئيس المجلس اقترب منى أحد الكتبة وطلب منى أن أعرف نفسى فأخبرته أننى ممثل الرئيس لوثولى الحائز على جائزة نوبل فصافحنى بحرارة وقال لى إنه لشرف لهم أن أتواجد هناك. وأثناء الاستراحة وجدت أن المجلس بأكمله قد اصطف لمصافحتى وشعرت بالرضا حتى كان مرور الشخص الثالث أو الرابع الذى تمتم قائلا إنه ليشرفه أن يصافح الرئيس لوثولى وشعرت بأننى مُدّع وأن الكاتب قد أساء فهمى وعند ذلك حضر رئيس الوزراء وقدمنى ذلك الشخص على أننى لوثولى وهنا حاولت أن أخبر الكاتب أننى لست هو لكنه رفض أن يستمع وقررت أن أكمل الدور حتى لا يضيع كرم الضيافة هباء وبعد ذلك التقيت برئيس الجمهورية وشرحت له الأمر وقدم لى مساعدة مالية سخية.

وفى ليبريا أيضا قدم لى الرئيس تابمان مساعدة سخية وذهبت بعد ذلك إلى غانا حيث قابلت أوليفر وعند لقائنا مع وزير غينيا المقيم فى غانا أخبرته بأننى لم ألتق بسيكوتورى ورتب لنا لقاء معه وقد أثار سيكوتورى إعجابى فقد كان يعيش فى بيت متواضع ويرتدى حلة قديمة باهتة وشرحنا له تاريخ المؤتمر والـMK وبعد أن استمع إلينا

جيدا قال إن حكومة وشعب غينيا يؤازرون كفاح إخوانهم فى جنوب إفريقيا مؤازرة تامة وأنهم قد أعلنوا ذلك فى الأمم المتحدة ثم أهدانا كتابين له بتوقيعه وشكرنا وانتهت المقابلة. وتضايقت أوليفر وتساءلت إن كان قد تم استدعاؤنا من بلد آخر لنعطى كتابين موقعين وأحسسنا أننا قد أهدرنا وقتنا. وبعد ذلك بقليل، وبينما كنا فى غرفتنا فى الفندق وصل مسئول من وزارة الخارجية وكان يحمل حقيب ديبلوماسية فتحها ووجدنا أنها مليئة بأوراق النقد.

وفى السنغال أصدر لى الرئيس سنجور جواز سفر ودفع ثمن تذكرتى إلى لندن.

-٤٨-

أعترف بأننى أحب كل ما هو إنجليزى فحينما كنت أفكر فى الديمقراطية والحرية الغربية كنت أفكر فى النظام البرلمانى الإنجليزى وكان الرجل الإنجليزى هو نموذج الجنتلمان. ولكن بالرغم من أن إنجلترا هى وطن الديمقراطية فقد كانت تلك الديمقراطية هى التى عملت على ابتلاء شعبى بذلك النظام الكريه.

وكان من دوافع ذهابى إلى إنجلترا قلقى على صحة أوليفر ومحاولة إقناعه بتلقى العلاج الطبى كما كنت أرغب فى رؤية زوجته وأولاده وكذلك يوسف دادو الذى كان يعيش فى لندن ممثلا لحركة المجلس الهندى.

وكنت أتحرك هناك فى السر خوفا من مخابرات جنوب إفريقيا.

وأنجزت بعض أعمال المؤتمر هناك وكانت لى لقاءات مع رئيس تحرير الأويزرفر وأعضاء البرلمان من حزب العمال ورئيسه هيوجتسكل ورئيس الحزب الديمقراطى.

وبعد ذلك ذهبت إلى أثيوبيا لتلقى تدريبى العسكرى وكان مدربى هناك ضابطا ذا خبرة. وكان برنامج التدريب مرهقا ويتكون من التدريب العملى والمحاضرات وتعلمت استعمال الأسلحة المختلفة وصناعة القنابل الصغيرة والديناميت وغيرها من الفنون العسكرية كما تلقيت معلومات عن تكوين فرق العصابات وقيادة الجيش. وكان من المفروض أن أقضى ستة أشهر فى التدريب ولكن بعد ثمانية أسابيع تلقيت برقية من المؤتمر يطلب عودتى حيث كانت المقاومة تتصاعد وكان لابد من وجود القائد هناك.

وعند وصولى إلى الخرطوم قابلنى مسئول الخطوط البريطانية وأخبرنى أن طائرتى إلى دار السلام قد تأجلت إلى اليوم التالى. وفى دار السلام التقيت أول مجموعة من رجال MK الذين كانوا فى طريقهم إلى أثيوبيا لتلقى التدريب العسكرى. وبعد ذلك منحنى الرئيس نيريرى طائرة خاصة إلى ليبيا. ومن هناك طرت إلى لوباتش وأخبرنى قائد الطائرة أن الخطة قد تغيرت. وفى مدينة كاينى قابلنى القاضى المحلى ورجل أمن وكانا أبيضين وسألانى عن اسمى فأجبت أننى أدعى داڤيد موتسمابى فرد القاضى قائلا إن علىَّ أن أخبره باسمى الحقيقى لأنه أُبلغ أن يقابل نيلسون مانديلا وأن يوفر له المساندة والمواصلات وإلا فسيلقى علىَّ القبض لعدم حملى إذنا بدخول البلاد. وهنا لم أجد بدا

من ذكر اسمى الحقيقى وبعد ذلك اصطحبنى بالسيارة إلى حيث كان ينتظرنى رفاقى وقررت السفر فى الليلة نفسها مع سيسيل ويليامز وهو مدير مسرح أبيض وعضو فى الـMK وتخفيت كسائقه وقدت السيارة باتجاه جوهانسبرج■